

صورة المرأة التارقية عند الرّحالة الفرنسيين

كتاب "توارق الشّمال" لِهِنري دوفرييه – Henri duveyrier – أنموذجاً

Image of a touaregue woman in the eyes of French travelers

The book "Tuareg of the North" by Henri Duvrier - an example

1 خدية العالية*

مخبر الموروث العلمي والثقافي لجامعة تامنغست

جامعة أمين العقال الحاج موسى آق أخموك تامنغست (الجزائر)

kheddialalia@univ-tam.dzkheddialalia@gmail.com

2 بكادي محمد

مخبر الموروث العلمي والثقافي لجامعة تامنغست

جامعة أمين العقال الحاج موسى آق أخموك تامنغست (الجزائر)

mohamedbakadi@gmail.com

تاريخ الارسال: 2025/03/05 تاريخ القبول: 2025/03/17 تاريخ النشر: 2025-05-27

ملخص:

تتناول هذه الدراسة، التي تندرج ضمن حقل علم الصُّورولوجيا "Imagology" ك فرع من فروع الأدب المقارن، تحليلاً نقدياً لتصوير المرأة التارقية في كتابات المستكشفين الفرنسيين الذين استكشفوا منطقة الهجّار خلال فترة تاريخية محدّدة. تسعى الدراسة إلى تقييم هذه التمثيلات، التي تُعتبر مصادر تاريخية وأثنوبولوجية هامة، من خلال عرضها، تحليلها وتقييمها، مع التمييز بين جوانبها الموضوعية والنمطية.

يُعَدُّ كتاب "توارق الشّمال" *les touareg- du- nord* للرحالة والجغرافي الفرنسي "هنري دوفرييه" *henri duveyrier* هو المدونة التي اتخذناها كنموذج لدراسة تلك الصورة، حيث يُعتبر من أهم المصادر التي كتبها الغربيون عموماً والفرنسيون خصوصاً حول المجتمع التارقي. يركّز الكتاب على توثيق عادات، تقاليد وأعراف هذا المجتمع، مع اهتمام خاص بالمرأة التارقية. الكلمات المفتاحية: المرأة التارقية، الهجّار، الصورة، توارق الشّمال، هنري دوفرييه.

Abstract:

This study, Situated within the field of Imagology, a branch of Comparative Literature, undertakes a critical analysis of the portrayal of Tuareg women in the writings of French explorers who explored the Ahaggar region during a specific historical period. The research aims to evaluate these representations, considered significant historical and anthropological sources, by presenting, analyzing, and assessing them, distinguishing between their objective aspects and stereotypical representations.

Henri Duveyrier's "Tuaregs of the North" (*Les Touaregs du Nord*), by the French traveler and geographer Henri Duveyrier, serves as the central text for this study. It is regarded as one of the most important sources written by Westerners in general, and the French in particular,

concerning Tuareg society. The book focuses on documenting the customs, traditions, and social norms of the Tuareg community, with particular attention to Tuareg women.

Keywords: Tuareg Women, Ahaggar, Imagology, Henri Duveyrier, Tuaregs of the North.

مقدمة:

شهدت أربعينات القرن التاسع عشر أول التفاعلات بين القوات الاستعمارية الفرنسية وسكان الصحراء الجزائرية، وذلك في سياق مسعى فرنسا لتوسيع سيطرتها الاستعمارية، وقد تلازم ذلك مع محاولتها قمع المقاومة المحلية وتوطيد قبضتها على كامل المنطقة.

وتحقيقاً لهذه الغاية، أرسلت فرنسا عدة بعثات استكشافية، بعضها كان هدفه جمع معلومات جغرافية واستخباراتية عن المنطقة، ومنها ما كان يهدف إلى كسب ود السكان المحليين وإقامة علاقات معهم، أو تحديد الثروات الطبيعية والاقتصادية.

بالتوازي مع هذه الاستكشافات، ظهرت ظاهرة أخرى تمثلت في الكتابات المتنوعة التي أنتجها العديد من المستعمرين الفرنسيين، على اختلاف مواقعهم ومهامهم، شملت تقارير عسكرية وإدارية، وكتابات لرحالة ومستكشفين جغرافيين، قدّمت وصفاً للخصائص البيئية لتلك المناطق، وسجّلت العديد من المواقف، العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة.

من بين الكتابات الهامة التي تناولت الصحراء الكبرى، يبرز كتاب الرحالة والجغرافي الفرنسي هنري دوفرييه "توارق الشمال"، يقدم هذا الكتاب وصفاً وتصويراً لجوانب جغرافية، اجتماعية وبيئية لحياة مجتمع التوارق، كما يتطرق إلى جوانب مختلفة من حياة المرأة التارقية، بما في ذلك مكانتها الاجتماعية، عاداتها وتقاليدها. وهو الكتاب الذي سنتناول فيه بالدراسة والتفصيل تصوير المرأة التارقية كما رسمها دوفرييه، وسنسعى جاهدين للوصول إلى تقديم موضوعي لمدى مصداقية هذا التصوير، من حيث هل تلك الصورة المرسومة للمرأة التارقية في كتابه، هي صورة موضوعية مطابقة للواقع؟ أم أنها مجرد صورة نمطية تمّ رسمها استناداً على كثيرٍ من التخيّلات؟ وهل هذا التصوير للمرأة التارقية هو تصوير طبيعي خالٍ من كل خلفية؟ أم هو تصوير موجه، مستند لخلفيات إيديولوجية ويسعى صاحبه لتحقيق أغراض معينة؟

ولغرض تبيان ذلك، اعتمدنا خطة بحث تتألف من عدّة محاور، في البداية نُقدّم تعريفاً بمؤلف الكتاب وكتابه، ثم ننتقل لتعريف مجتمع التوارق، بعد ذلك نتناول تصوير المرأة في كتاب دوفرييه، وذلك من خلال أبعادها الفيزيولوجية، الاجتماعية والثقافية، وفي الختام نقوم بتقييم هذه الصورة، ونختتم الدراسة بخاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصلنا إليها.

1. التعريف بهنري دوفرييه "Henri Duveyries" 1840-1892:

ولد هنري دوفرييه في باريس عام 1840م، لعائلة مثقفة، لعبت بيئة طفولته دوراً حاسماً في تشكيل اهتماماته العلمية واستكشافاته المستقبلية، تأثر بوالده الكاتب والاشتراكي تشارلز دوفرييه الذي كان من أتباع سان سيمون¹، هذا الانتماء الأيديولوجي إلى المدرسة الاشتراكية التدرجية أو السانسيمونيون² غرس في دوفرييه الشاب الرغبة في الاستكشاف والتطلع إلى مجتمع عالمي متكامل.

انتقل إلى ألمانيا لإكمال دراسته، وبدأ في تطوير اهتماماته العلمية واللغوية، تعلّم اللغة الألمانية وقام بكتابة أولى ملاحظاته العلمية، في العام التالي التحق بكلية التجارة لايبزيغ leibzi، كما أجاد اللغة العربية على يد الأستاذ المستشرق فل يشرف fleishet في الجامعة، الذي أسس الجمعية الشرقية الألمانية عام 1845. هذه التجربة الأكاديمية المبكرة زوّدت دوفرييه بأساس لغوي قوي في اللغة الألمانية والعربية، مما أهله لاحقاً للقيام برحلاته الاستكشافية في الصحراء الكبرى والتفاعل مع السكان المحليين.

انغمس دوفرييه بشكل عميق في الدراسات الجغرافية، الأرصاد الجوية وعلم الفلك، بالإضافة إلى اللغويات والأثنووجرافيا³، ونظراً لتأثره بالفكر السانسيموني، فقد دفعه ذلك إلى تبني منهجية استكشافية تجمع بين العلم والتجارة، ساهم بكتاباته في توسيع المعرفة عن الصحراء الكبرى، لاسيما ثقافة التوارق، ومع ذلك فإن رحلاته الاستكشافية، بدعم من السلطات الفرنسية، لعبت دوراً حاسماً في التوسع الاستعماري الفرنسي في الجزائر. تميّزت رحلته إلى "فزان" عام 1861 بقدرته الفريدة على الانسجام مع قبائل كل⁴ آجر⁵ التارقية، الأمر الذي مكّنه من جمع بيانات قيمة حول المنطقة وثقافة سكّانها، هذه الرحلة يمكن اعتبارها محاولة لتوطيد العلاقات مع القبائل الصحراوية وتحضير الطريق للتوسع الاستعماري.

حظي هنري دوفرييه بالعديد من مظاهر التقدير على أعماله، بما في ذلك وسام جوقة الشرف الذي ناله في سن الثانية والعشرين، وفي عام 1864م، نشر كتابه "توارق الشمال"، الذي استند إلى مذكرات أسفاره، وحصل بسببه على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية في باريس في العام نفسه، وفي 25 أبريل 1892م، مات هنري دوفرييه منتحراً في فرنسا عن عمر 52 سنة.

2. التعريف بكتاب "توارق الشمال les touareg du nord":

كتاب "توارق الشمال" هو دراسة ميدانية تحليلية للبيئة الاجتماعية في المجتمع الصحراوي الجزائري، يتألف من أربعة أقسام رئيسية، يُعرف كل قسم منها بكتاب، وتنقسم هذه الكتب بدورها إلى عدة فصول، يحمل كل فصل منها عنواناً فرعياً خاصاً به، ويتبع التسلسل الموضوعي.

يُخصّص الكتاب الأول للبيئة المأهولة أو الجغرافيا الطبيعية، فيستعرض الأرض والسماء والهيدروغرافيا وعلم الجيولوجيا والأرصاد الجوية والمواقع الفلكية، وينتقل الكتاب الثاني إلى جرد الإنتاج في كل من الثروة المعدنية، النباتية والحيوانية، أما الكتاب الثالث، فيركّز على مراكز التفوذ التي تجذب المجتمع البدوي، ويتناول على وجه الخصوص المراكز التجارية والدينية.

أما الكتاب الرابع فقد خصّصه بشكل كامل لتوارق الشمال، يستعرض فيه أصولهم، أقسامهم، قبائلهم، دستورهم الاجتماعي، تاريخهم وأهم شخصياتهم، وحياتهم الداخلية والخارجية، كما قدّم من خلاله وصفاً فيزيائياً وسياسياً للأقاليم التي زارها وعابنها عن كتب، وذلك في الفترة الممتدة ما بين 13 يونيو/جوان 1859م و2 أيلول/سبتمبر 1861م، وتضمّن هذا الكتاب ملحقاً مختصراً في شكل ملاحظات بسيطة، واحتوى على أربعة وعشرين لوحة فنية رسمها هنري دوفرييه، جسّد فيها مشاهداته أثناء رحلاته.

هذا الكتاب الذي ارتكز على مذكراته التي كان يدوّن فيها مشاهداته أثناء رحلاته الاستكشافية، مازال يمثل مرجعية هامة حتى اليوم في مجال الجغرافيا خاصة، حيث مكّنته تلك المذكرات المستندة إلى التجربة الميدانية من كتابة سيرة ذاتية لاقت رواجاً واسعاً واعترافاً بأهميتها، وذلك بغضّ النظر عن التلفيقات المدسوسة بين ثناياه، والتي يرى بعض الباحثين أنها من صنع صديق والده الدكتور وارييه⁶ A.H. Warnier، أو بالأحرى الكاتب الحقيقي للقسم الاجتماعي والتجاري في هذا الكتاب⁷، بعد أن طالبت السلطات الفرنسية بالجزائر بكتابة تقرير عن رحلة هنري دوفرييه بعد أن فقد ذاكرته لبعض الوقت نهاية عام 1861م، فاخياره لصوّر معيّنة قد يكون مدفوعاً بأهدافه الاستعمارية وكتابات به شكل عام، وليس فقط بتحيّزاته الشخصية.

3. التعريف بمجتمع التوارق:

التوارق أو مجتمع "الرّجل الأزرق" كما يخلو للمستشرقين الغربيين تسميتهم، هم قبائل من البدو الرّحل ينتشرون في الصحراء الكبرى ما بين حدود جمهورية مالي الشمالية الغربية، مع موريتانيا إلى حدود السودان، مروراً بشمال مالي، النّيجر والتشاد، وجنوب غربي ليبيا، إلى تامنغست بالجزائر وجانت وتيمياوين في برج باجي مختار⁸، لا يمكن إحصاء بدو التّوارق، نظراً لتأرجح هذا المجتمع بين الثبات والحركة، حسب ظروف الحياة وتقلبات الطبيعة، ومع غياب إحصاءات دقيقة وموثقة، لا يمكن إعطاء رقم صحيح عن عددهم في مجموع الفضاء الجغرافي الذي ينتشرون في رحابه.

تباينت آراء المؤرخين العرب والمسلمين على أصولهم، فهناك من يرى أن أغلب الظن أنّهم ينحدرون من صنهاجة، وهم من الهجرات العربية الأخيرة إلى شمال أفريقيا قبل الفتح العربي الإسلامي بحوالي ستة قرون، وهم الذين جلبوا الجمل إلى شمال أفريقيا من الجزيرة العربية⁹، ويرى ابن خلدون أنّهم ينحدرون من صنهاجة وكتامة، وأن بين نسبة العرب خلافاً، والمشهور أنّهم من اليمانية، وأن أفريقش لما غزا أفريقية أنزلهم بها¹⁰.

وهناك من المستشرقين من يرى أنّهم مسيحيون، أمثال هنري دوفرييه، إلا أن الباحثين المحدثين، وفي مقدمتهم "بن هازرا Benhazra وبلونقيرون Blongueron" يتفقون على أنّ عدداً من القبائل التابعة للتّوارق، والمعدودة منها، تنتمي إلى أصل عربي أو إلى أصل تارقي عربي مختلط، ومنهم من يزعمون أنّ التّوارق هم من الصّليبيين، ظلّوا طريقهم بعد هزيمتهم في الشّرق، وقطعوا الفيافي تائهم، حتى استقر بهم المقام في اهجار¹¹..

تعتبر تسمية التّوارق من المواضيع التي أثارت جدلاً واسعاً بين المؤرخين والباحثين، حيث تعدّدت الآراء والتفسيرات حول أصل هذا الاسم ومعناه، ونظراً لغياب مصدر قطعي ونهائي للتسمية، ظهرت العديد من التّكهنات والاجتهادات التي حاولت تفسيرها، منها ما يربطها بأحداث تاريخية أو جغرافية أو لغوية.

في العصور الوسطى حملوا اسم "إسْجُلْمَاسَن" ¹² والتي تعني "الملثّمون"، وهناك من يرى أنّ التّسمية نابعة من اشتقاق الفعل العربي "طرق" الذي من بين معانيه ما أورده ابن منظور إذ يقول: ... فكل آت بالليل طارق، وقيل أصل الطروق من الطّرق وهي للدّق، وسمّي الآتي بالليل طارفاً لحاجته إلى دقّ الباب، وفي حديث علي كرم الله وجهه: "إنها حارقة طارقة" أي طرقت بخير، وجمع الطارقة "طوارق"، وفي حديث آخر "أعوذ بك من طوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير" ¹³. ومنهم من قال أن سبب التسمية هو انتسابهم إلى "طارق ابن زياد"، وتأتي التسمية انتساباً إلى وادي تاركا "درعة"، الواقع جنوب مراكش، حيث كانت تسكن قبائل المثلثمين، و"تاركا" تعني مجرى النهر، والنسبة إليها "تارك" وجمعها "توارك" ¹⁴ وهو الاسم الذي تحوّل بمرور الوقت إلى طوارق ¹⁵.

وما هو معروف، وبغض النظر على التسمية وتأصيلها، فإنّ التّوارق هم شعب مسلم على المذهب المالكي، وتتميّز هويّتهم بتنوع كبير، حيث يجمعون بين تراث بدوي أصيل، وتأثيرات ثقافية متنوعة، نتيجة تاريخهم الطويل في الصّحراء، كما يتميّز مجتمعهم بعبادات وتقاليد هي جزء من هويّة تلك المناطق التي ينتشرون بها، والتي كانت معبراً للعديد من الثقافات والحضارات، فشكّلت مزيجاً من الأجناس والأعراق البشريّة واللّهجات المختلفة.

4. صورة المرأة التّارقية في كتاب "توارق الشمال":

برزت في هذا الكتاب قدرة فائقة على التصوير والاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، حيث ركّز الكاتب تركيزاً شاملاً على جميع الجوانب والمناحي التي يتناولها بالوصف والتوثيق حياة المرأة التّارقية وتسليط الضوء على تفاصيل حياتها، فنجدّه يتطرّق إلى وصف بعض الصّور المتعلّقة بها، منها الفيزيولوجية، الاجتماعية والثقافية، وابتني سنتطرّق لعرضها بالتفصيل مع تحليلها ومناقشتها.

• الصّورة الفيزيولوجية للمرأة التّارقية:

يتطرّق هنري دوفرييه إلى النّاحية المرفولوجية للمرأة، ويولي اهتماماً خاصاً لمظهرها الخارجي، حيث يرى أن نساء التّوارق يتمتّعن بقدر كبير من الجمال، فيصفهن بأنّهنّ جميلات جذّابات، طويلات القامة، متغطّرات، جملهنّ ذو ميزة خاصّة، ويمتلكن ملامح تجعلهنّ أقرب إلى ملامح النساء الأوروبيّات ¹⁶.

ويصف دوفرييه المرأة التّارقية بكونها ذات جاذبيّة فائقة، ويضع معايير محدّدة لجمالها من وجهة نظره، فهو يرى أن الجاذبيّة هي الصّفة الأساسيّة للجمال، ويشير إلى أنّ المرأة التّارقية تمتلك جاذبيّة تأسر الناظر إليها، كما يعتبر أنّ القامة الطويلة هي معيار آخر للجمال، ويرى أنّ المرأة التّارقية تتميّز بقامة طويلة كجزء من تكوينها الجسدي، بالإضافة إلى ذلك يرى دوفرييه أنّ "الغطّسة" هي سمة جماليّة أخرى عند المرأة التّارقية، رغم المعنى السّلبّي الذي تحمله هذه الكلمة.

وكصفة من صفات الجمال أيضاً، يشير دوفريه إلى صفة الحياء والحشمة، حيث يرى أن نساء التوارق حين يتحدثن مع الرجال، يُخفين وجوههن كعلامة على احترامهنّ لهم¹⁷، فالمرأة التارقية تتسم بحياء شديد في تعاملها مع الرجال، ليس كعادة اجتماعية فحسب، بل كجزء من تكوينها الفيزيولوجي، ويصف دوفريه المرأة التارقية عندما تتحدث مع الرجل بقوله "ورغم أنّهنّ لا يضعن اللثام، إلا أنّهنّ يُدرن ظهورهنّ لمحاورهنّ، أو يجلبن زاوية من اللثام "الحايك" على وجوههن¹⁸، فإخفاء الوجه لدى المرأة التارقية ليس مجرد فعل مادي، بل هو آلية من آليات الحفاظ على أنفسهن.

• الصورة الاجتماعية للمرأة التارقية:

يرى دوفريه أن النساء نادراً ما يتزوجن قبل العشرين والرجال قبل الثلاثين¹⁹، فالزواج المبكر ليس ظاهرة طبيعية، بل هو نتيجة لأعراف وتقاليد اجتماعية متجذرة في مجتمع ما، وهذه الحقيقة تتعارض بشكل قاطع مع الاعتقاد السائد بأن سكان المناطق الحارة يبلغون النضج مبكراً، مما يدفعهم إلى الزواج في سن صغيرة²⁰.

التوارق هم بدو رحل، مجتمعهم تقليدي بسيط، يعيشون على تربية المواشي والرعي، يكثرن الترحال في الفيا في بحثاً عن الماء والكأ، ساعين في مواجهة الصحراء بكل قسوتها واتساعها وندرة مواردها، وتشداد الماء والرعي وحماية الذات من الأخطار، وتأمين المعيشة، إن كل هذه الظروف الصعبة والأوضاع القاسية، وفي ظل غياب الزوج أو الأب أو الأخ بسبب قيامه بالترحال والإغارة والتجارة والسفر بالقوافل لشهور، وقد يمتد ذلك إلى سنوات، يدفع بالمرأة إلى أن تتحمل مسؤولية القيام بدورها بكل إيمان وصبر وثقة لكي تؤمن معيشتها وأبنائها، فإذا كانت القبيلة هي الخلية الأساسية في تركيبة النظام الاجتماعي في المجتمع الصحراوي، فإن الأسرة هي معين هذه الخلية الكبرى، تستقي منها القوة والصيرورة، والمرأة أهم روافد هذا المعين، هي تشكل قوامها ودعامتها الرئيسية.

في بيئة كهذه تعتني المرأة داخل الأسرة بالأطفال حصراً²¹، وتعكف على تربيتهم، وهم يعنون الكثير بالنسبة لها، فدمها هو الذي يمنحهم المكانة التي يأخذونها في المجتمع وليس دم الزوج²²، وهذا نظام قديم متعارف عليه داخل مجتمع التوارق.

كما ترعى الأغنام وتتكفل بالبيت وكل أفراد العائلة منذ صغرها، فهي في هذه المجتمعات ليست بحاجة إلى التعليم المدرسي أو الأكاديمي، بل إلى تعلم كيفية أساليب الحياة، وكيف تؤمن معيشتها ومعيشتها من معها، وتساهم في زيادة دخل الأسرة فهي السند الداعم للرجل في غيابه وحضوره.

والتارقي يحق له الطلاق وليس له إلا زوجة واحدة²³، ويعود سبب هذا التحديد إلى أن النساء وفقاً لهذا التقليد لا يتحملن الزواج على ضرة²⁴، وإلا الزوجة الأولى تترك زوجها وتغادر البيت نهائياً.

يصور دوفريه هنا سلطة المرأة التارقية في حياتها الزوجية، حيث يشير إلى قدرتها على فرض الزواج الأحادي على الرجل، رغم أنّ الشريعة الإسلامية تُجيد تعدد الزوجات، ويُعتبر هذا حسب دوفريه، التزاماً يجب على الرجل احترامه دون أي استثناءات.

ويرى دوفريه أن المرأة التارقية هي الأسعد في الأسرة، لأنها تفرض أحادية الزواج، كما أنها لا تقوم بالأعمال المنزلية، فهي غير ملزمة بطحن القمح ولا بجلب الماء، ولا جمع الحطب على ظهرها للطهي، فالعبيد يوفرون كل هذه الاحتياجات²⁵، فتخلد سيدة البيت إلى الراحة والهدوء أو زيارة أقاربها، أو تتفرغ لتعليم ابنتها الطهي أو الخياطة أو تعليمها الكتابة والعزف.

في مجتمعات القبائل، كان يُنظر إلى المرأة تقليدياً على أنها لا تشارك في صنع القرارات الجماعية، ومع ذلك فإن بعض النساء تمكن من كسر هذه الحواجز، بفضل حكمتهم ورأيهن السديد، أصبحن يشاركن في مجالس القبيلة وإن كانت هذه المشاركة محدودة بطروف استثنائية²⁶.

وعلى الرغم من أن مجتمع الطوارق يبدو تقليدياً وذو بنية أبوية²⁷، إلا أن المرأة فيه تتمتع بسلطة وحضور غير مسبوقين في العديد من المجتمعات الأخرى، هذا التناقض بين الشكل الظاهري للمجتمع ودور المرأة الفعلي يجعل من الصعب حسم مسألة من يسيطر فعلياً على دفة الأمور في هذا المجتمع²⁸، أهو الرجل أم المرأة، إلا أن بعض الدراسات أظهرت أن المرأة الريفية لها نفوذاً لا بأس به على أفراد أسرتها التي من صفاتها الأساسية الصبر والتكافل وخصوصاً في المجتمع الهجاري.

النساء في مجتمع التوارق متساويات مع الرجال نسبياً²⁹، ولو أن هذه المساواة غير كاملة في جميع الجوانب، إلا أن المجتمع التارقي يمنح المرأة مكانة اجتماعية عالية بحيث تتمتع بحقوق ومسؤوليات متساوية إلى حد كبير مع الرجل، فالبنات الصغيرات لها الحق في التعليم، وتستقل بثروتها الخاصة في شبابهن، وتعتمد على أنفسهن، والسلطة الأبوية لا تتدخل إلا لفض النزاعات³⁰، وهي حرة في تصرفاتها³¹ وتذهب حيث تريد بشرط عدم إهمال واجباتها كزوجة وأم³². ويرى دوفريه أن المرأة في مجتمع التوارق تتمتع بمكانة عالية ومرموقة، ولعل ما يعكس هذه المكانة هو مهرها من أبيها وزوجها المتمثل في عدد من النوق، وهو يخصها حصراً بعد الزواج، فلا يحق لأحد التصرف فيه غيرها، وبعد زواجها تدير ثروتها الشخصية دون أن تضطر أبداً إلى المساهمة في نفقات الأسرة³³، وعند تراكم المنتجات، يكون الجزء الأكبر من الثروة في أيدي النساء³⁴، والآن في مجتمع الطوارق تمتلك الغالبية القصوى منهن هذه الثروة³⁵.

يقول التقليد في العصور القديمة تم العثور على نساء غير متزوجات في مجتمع الطوارق يملكن قطعاً عديدة، وعجزن عن الدفاع عنها بأنفسهن ضد السرقة والنهب، وطالبن بحماية العائلات الأميرية، ووافقن على دفع الجزية لها³⁶، وبذلك حظين بحفظ ممتلكاتهن.

ووفقاً لهذا يرى هنري دوفريه أن الطوارق أرسطوقراطيون، وجمهوريتهم أرسطوقراطية³⁷، وإذا كان هناك فارق واحد يختلف فيه المجتمع الطارقي عن العربي فهو المكانة الرفيعة التي تحتلها المرأة هناك، مقارنة بالحالة المتدنية للمرأة العربية³⁸، في المجتمع العربي، حيث يُصور الكاتب وضعها فيه بشكل سلبي وموحد، وهو بهذا يقدم صورة مبسطة ومجردة عن المجتمعين الطارقي والعربي متجاهلاً التعقيدات الثقافية والاجتماعية الكبيرة والمتنوعة داخل كلا منهما، كما أنه يعمم

على المجتمع العربي بأكمله دون النظر إلى أوضاع المرأة في مختلف الدول العربية، متأثراً بالنظرة الاستعمارية السائدة في عصره.

• الصورة الثقافية للمرأة التارقية:

يقدم دوفريه صورة للمرأة التارقية في سياقات ثقافية متنوعة، تعكس في مجملها مكانة المرأة في مجتمعها التارقي خلال تلك الفترة الزمنية، وتجدد الإشارة إلى أنّ فرص التعليم، وخاصة النظامي، كانت محدودة للغاية في المجتمعات الصحراوية، بما في ذلك المجتمع التارقي، خلال الحقبة الاستعمارية.

ومع ذلك، يقدم دوفريه في كتابه "توارق الشمال" العديد من المواقف التي تبين جوانب من تعليم المرأة التارقية وقفافتها، مما يدل على وجود أشكال أخرى من المعرفة تتجاوز التعليم النظامي.

يذكر دوفريه أن جميع النساء تقريباً بين التوارق يعرفن القراءة والكتابة بنسبة أكبر حتى من الرجال³⁹،

لأن المرأة تُورث ابنتها هذه الكتابة منذ صغرها.

يقول: وعند وصولي إلى قبائلهم أعربت عن رغبتي في تعلم "تيماحاق"، وكانت دهشتي كبيرة حين قيل لي أن تعليم التيفيناغ⁴⁰ مخصص للنساء فقط⁴¹، نجد هنا وعلى الرغم من أنه لم يستخدم مصطلح المرأة المعلمة بشكل صريح، إلا أنه قدّم أدلة قوية على أنّ المرأة كانت تلعب دوراً محورياً في نقل المعرفة والمهارات في مجتمع الطوارق، فنجدها تعكف على تعليم ابنتها أثناء تربيته هذه الكتابة التي هي امتداد للحضارة الفينيقية في المشرق، فكل شيء استثنائي في حفظ هذه الكتابة لأننا مدينون لهذه المعجزة بشكل أساسي للسيدات الطارقيات⁴²، اللائي كان لهنّ الفضل في استمراريتها وبقائها إلى الوقت الراهن، وربما هذا ما جعل المرأة تحتل مكانة مرموقة في مجتمع الطوارق.

فالتعليم في هذا المجتمع لم يكن مقتصرًا على المؤسسات التعليمية الرسمية، بل كان يتم بشكل غير رسمي داخل الأسرة والمجتمع، وكانت المرأة تلعب دوراً محورياً في هذا السياق ولا زالت إلى اليوم، والكاتب بذلك يقدم نظرة قيمة عن دورها في هذا المجال الحيوي.

ومن بين الصور التي تبرز الجانب الثقافي للمرأة التارقية في كتاب "توارق الشمال" تبرز تلك الممارسات الثقافية التي حافظت من خلالها على الموروث الثقافي الشعبي للمجتمع التارقي، يتجلى ذلك في الأشعار التي تنظمها، والأغاني التي ترددها، والمعزوفات التي تقدمها.

والمرأة التارقية هي الحافظة للتراث الشعبي، فهي الأديبة والشاعرة والمغنية والفنانة والعازفة..، فمن أهم الأشياء التي تتعلمها الفتاة من والدتها وتعتبر ذات أهمية في مجتمعها، هي مدابة الآلات الموسيقية التقليدية، فحسب العُرف السائد، عندما تبلغ الفتاة يهدونها وشاحاً تضعه فوق رأسها، وتنهمك الأم بتعليمها صنع الحقائق، وحلب الشياه وتركيب الخيمة والعزف على آلة الإمزاد وهي الكمان الذي تغني عليه النساء بشجاعة فرسانهن، فرغم أن الرجل الطارقي له ميل فطري إلى الشجاعة والفروسية، إلا أن النساء لازلن يشجعنه في أغانيهن وفي ارتجالهن الشعرية، بإدانة الجبن ومدح الشجاعة⁴³، وآلة الإمزاد هي رمز ثقافي بارز في المجتمع التارقي، حيث يُحظر على الرجال عزفها،

تُمارس هذه العادة منذ أجيال، حيث تحمل المرأة آلتها الموسيقية في كل مساء وتقدم عروضاً موسيقية بحضور زوجها للترفيه عن نفسها وأسرتها⁴⁴، هذا التقليد يعكس الدور الاجتماعي للمرأة التارقية في توفير الترفيه والترويح عن النفس في البيئة الصحراوية القاسية.

ومن الناحية الأنثروبولوجية يُعتبر حصر عزف آلة الإمزاد على النساء في المجتمع التارقي ظاهرة ثقافية مثيرة للاهتمام، هذا التقليد يعكس تقسيم الأدوار والمهام داخل هذا المجتمع، حيث تُمنح المرأة مساحة للتعبير عن ذاتها وإبداعها ضمن إطار قيمي واجتماعي محدد، كما يسلط الضوء على أهمية الموسيقى في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع.

ومن هنا أيضاً القرع على الطبل أو "التيندي"، ويكون ذلك عند اعتلاء ابن الأخت الكبرى سُدة الحكم فيقوم التوارق بتسليمه طبل السلطة والسيادة، أو يدقون عليه عند بداية الحرب.

والمرأة التارقية بارعة في فن القصص الشعبية وسردها، وتحافظ على لهجات التوارق، ومنها لهجة "تَصَكْصَهَكْ" و"بَجْدَالَتْ، أو تَقْدَالَتْ"، و"شِنْ سِرْت" التي أهمها "تماشق"⁴⁵، من بين خمسة آلاف لهجة بربرية في شمال إفريقيا⁴⁶، وتجيد الكتابة بحروف الأبجدية الفينيقية القديمة، وتجيد نظم الشعر وغناءه..، فهي الفن بأصوله وقد ظهرت هذه الصورة في توارق الشمال حيث أنّ النساء يجتمعن كل مساء ويرتلن الغناء على أنغام آلة الإمزاد الموسيقية، ويشكل الرجال دائرة ويجلسون حول المغنيات⁴⁷، مرتدين أحلى الملابس، فليالي التوارق تسطع أنوارها بالجمال، وعلى شذى الألحان وبالكلمة تُفصح النساء عن أحلامهن، ويردد الرجال كلماتهن.

وذكر دوفريه أن نساء قبيلة إفوغاس⁴⁸ يشتهرن بأخلاقهن الحميدة ومهارتهن في كل شيء، ماهرات في الفن الموسيقي، فهن يُجِدْنَ العزف على آلة الإمزاد حين ارتجأهن للغناء⁴⁹، فالمرأة في المجتمع التارقي هي حاملة لواء التراث الموسيقي الأصيل في مجتمعهما، وإجادتها العزف على آلة الإمزاد، ليست مجرد مهارة، بل هي جزء لا يتجزأ من هويتها الثقافية، أنغامها تحكي حكايات عن تاريخ شعبها، وتعبر عن مشاعره وأحاسيسه، مما يجعل الإمزاد أكثر من مجرد آلة موسيقية، بل هو رمز لهوية وثقافة التوارق.

5. تقييم لصورة المرأة في كتاب هنري دوفريه:

قبل تقييم الصورة التي رسمها دوفريه للمرأة التارقية، سواء كانت من الناحية الفيزيولوجية، الثقافية أو الاجتماعية، يجب أولاً أن نتناول الأسباب والملابسات التي كانت وراء تأليف هذا الكتاب، وذلك حتى نتمكن من فهم الخلفية التي كانت وراء هذا التصوير.

فكتاب "توارق الشمال" لهنري دوفريه يُقدّم وصفاً مفصلاً لحياة المجتمع التارقي في القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من أنّه عمل يُعتبر مرجعاً هاماً لدراسة هذا المجتمع، إلاّ أنّه ينبغي أخذ الاعتبار بأنّه لا يخرج عن سياق مجموعة الكتب التي ألّفها المستشرقون الغربيون وخاصة الفرنسيون على اختلاف اهتماماتهم، مستكشفين، جغرافيين، عسكريين..، والتي

لم يكن غرضها الأساسي تصوير المجتمعات الصحراوية عموماً، أو التارقية على وجه الخصوص، بقدر ما كان هدفها الأول الذي كانوا يخفونه أحياناً ويظهرونه في أحيانٍ أخرى هدفاً استعماريّاً بالدرجة الأولى.

إذن يجب أن تكون معرفة هذا الهدف حاضرة لدينا عند دراسة ما ورد في هذا الكتاب من تصوير للمرأة التارقية، فالصورة التي قدّمها الكاتب لها كانت صورة مبسّطة وسطحية إلى أبعد الحدود، على الرغم من أنه أبرز من خلالها بعض القيم الاجتماعية والأعراف المجتمعية التي كانت تحوي جزءاً من الواقع.

ذلك لأن تصويره للمرأة داخل مجتمع التوارق كان محصوراً في الجانب الظاهري، ولم يتعمّق بالقدر الكافي، أو يفسّر العديد من الأبعاد لكثير من خلفيات تلك الصورة إلا مائلاً.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الكاتب في كتاب "توارق الشمال"، وفي معرض تصويره للمرأة التارقية، يعتمد إلى عقد مقارنات بينها وبين المرأة العربية، ساعياً لإبراز تباين واضح بينهما في مختلف الجوانب، وكمثالٍ على ذلك يرى من الناحية الفيزيولوجية أن المرأة التارقية أقرب إلى المرأة العربية في الملامح الجمالية، كما أنه يراها امرأة متحررة تتمتع بمكانة رفيعة في المجتمع، على عكس المرأة العربية، إلا أنه لم يقدم أدلة واضحة أو قرائن قاطعة تُدعم هذه الآراء، مما يجعلنا نعتقد أنها مجرد مقارنات اعتباطية، لا تعريها البراءة، لغرض التفريق بين المجتمع الواحد من باب تطبيق المعادلة الاستعمارية الشهيرة "فرّق تَسُد".

خاتمة:

من خلال رصدنا لمختلف أنماط التصوير التي استخدمها دوفريه في تصوير المرأة التارقية في كتابه، يمكننا الوقوف على نموذجين رئيسيين.

النموذج الأول هو الصورة الموضوعية، حيث يقدم صورة أقرب إلى الواقعية، فعند إخضاع هذه الصورة لواقع، تقاليد وأعراف المرأة التارقية في مجتمعاتها، نجد أنها متطابقة في بعض الأحيان وقرية جداً من الصورة الواقعية المرسومة في أحيان أخرى، مما يجعل هذا الكتاب مستنداً مهماً لحفظ هذه الصورة للمرأة التارقية في مجتمعاتها، وهو الأمر الذي سيُسهم بشكل غير مباشر في حفظ التراث داخل المجتمع التارقي من حيث قيمته، تقاليده، ثقافته وأعرافه، خصوصاً ما تعلق بالمرأة منها.

أما النموذج الثاني فيتعلّق بالصّور غير الموضوعية للمرأة التارقية التي جاءت في كتاب "توارق الشمال" والتي لم تكن واقعية ولا تتطابق مع واقع المرأة التارقية ولا مع أعرافها وتقاليدها، وهي صوّر تشكّل عنصر تشويه، حيث تقدّم المرأة التارقية بصورة نمطية تعاكس وتحالف الواقع الحقيقي للمرأة، مما يكون سبباً في تشويه المجتمع التارقي من خلال تلك الصّور التي لا تعكس واقعه أو حقيقته.

في الأخير يمكننا القول أنّ مزج الكاتب لصوّر المرأة الحقيقية والموضوعية مع الصّور النمطية غير الواقعية في الآن نفسه، هو محاولة فير بريئة، الغرض منها في المقام الأول تمرير تلك الصّور النمطية المغلوطة التي لا تخلو من نظرة

استشراقية، ليس عن المرأة التّارقية فقط، ولكن عن المجتمع التّارقي بشكل خاص والجزائري بشكل عام، وذلك بغرض تحقيق أهداف مَصْبُها غير بعيد عن الغرض الاستعماري.

2. قائمة المراجع:

- محمد سعيد القشّاط. الطّوارق، عرب الصّحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، ط 2، 1989.
- عثمان سعدي، البربر الأمازيغ عرب عاربة، وعروبة الشمال الإفريقي عبر التاريخ، دار الألة للطباعة والنشر، 2018.
- عبد الرّحمان بن خلدون، المقدّمة، مراجعة سهيل زّكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، م 6.
- اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.
- فيليب رينيه، السانسيميونيون في مصر، تقديم أمين فخري عبد النور، ترجمة أمل الصبان، أنور مغيث، داليا الطوخي، المركز القومي للترجمة، إشراف جابر عصفور، العدد 1627، ط 1، 2011.
- ابراهيم العيد بشّني، تاسيلي ناجّر " تاريخ الاستقرار البشري في المنطقة، منشورات الحبر، ط 1، 2009، ج 3.
- محمد الشيخ الأنصاري، الطوارق، الأصل والموطن، مجلة الجنوب الليبي، السنة الأولى، العدد الأول، 2015.
- عماد الدين غانم، الدواخل الليبية، في مجموعة من الدراسات للرحالة الألماني "غوتلوب أدولف كراوزه"، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة نصوص ووثائق (28).
- عبد الرحمان الجيلالي، حرف القاف المفقودة مجلة الشهاب، 1931.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج 10.
- Exploration du sahara, Les touareg du nord par henri duveyrier, Paris, Challamel ainé 1846, P 355
- René Basset, Les influences puniques chez les berberes, "revue africaine", V 72, 1921
- H.Bissuel, les touareg de l'Ouest, Librairie, Edition Adolphe Jourdan, Alger 1888.
- Dominique CASAJUS, Henri Duveyrier chez les Touaregs: le destin saharien d'un saint-simonien rebelle, Article paru dans Gradhiva, 2003
- Ethnographie de L'Algérie, Par O.Houda, frères ch.Leclerc, éditeurs, Libraires de la Société D'Ethnographie, 25, Quai voltaire, 1886.
- H.R, Ageron, la France en kabylie, Ed Belles lettres

¹* خديّة العالية

¹سان سيمون هو كلود هنري دو روفرواي Claude Henri de Rovroy: فيلسوف فرنسي ينحدر من عائلة أرسطوقراطية، يحمل لقب "كونت Comt"، دعى إلى الاهتمام بالصناعة... أنظر: السانسيميونيون في مصر، تأليف فيليب رينيه، تقديم أمين

فخري عبد النور. ترجمة أمل الصبان. أنور مغيث. داليا الطوخي. المركز القومي للترجمة. إشراف جابر عصفور. العدد 1627. ط 1. 2011. ص 11.

²السَّانْسِيمُونِيُون: هم جماعة من الشباب، مهندسون من مدرسة الهندسة العليا "Polytechnique" وأطباء في معظمهم، تبنا الأفكار السانسيمونية لأنهم أصيبوا بما يسميه الرومانسيون "وجع القرن"، أنظر السانسيمونيين في مصر. مرجع سابق. ص 12.

³الإثنوغرافيا: هي علم يهتم بوصف الحضارات، وبحث مشاكل النظرية المتعلقة بتحليل العادات البشرية للمجتمعات الإنسانية المتباينة. أنظر:

Ethnographie de L'Algérie. Par O.Houdas. frères ch.Leclerc, éditeurs.Libraires de la Société D'Ethnographie. 25. Quai voltaire. 25. 1886.

⁴كل: هذه الكلمة تعني "أهل" عند الطوارق، أنظر:

H.Bissuel, les touareg de l'Ouest, Librairie, Edition Adolphe Jourdan, Alger 1888.

⁵كل آجر: هم سكان منطقة الطاسيلي التي تقع شمال شرق الهجّار، تمتد عرضاً من منطقة تبستي إلى غاية الصحراء الليبية، أنظر: ابراهيم العيد بشّي. تاسيلي ناجّر "تاريخ الاستقرار البشري في المنطقة. منشورات الخبر. ط 1. 2009. ج 3. صص 93 - 96.

⁶أوغست هوبر وارنييه Auguste huberwarnier: 1810-1875، طبيب وسياسي فرنسي، لعب دوراً كبيراً في نشر فكرة تمييز البربر عن العرب واتخذ ذلك سلاحاً لتأسيس النزعة البربرية، تلك الإيديولوجية التي فرقت بين الشعب الواحد، اعتبره تشارلز روبرت Charls-Robert وآخرون المؤسس الحقيقي للأسطورة القبائلية، أنظر:

- H.R. Ageron. la France en kabylie. Ed Belles lettres. P14.

⁷Dominique CASAJS. Henri Duveyrier chez les Touaregs : le destin saharien d'un saint-simonien rebelle. Article paru dans Gradhiva. 33. 2003. pp. 11-31.

⁸محمد سعيد القشّاط. الطوارق، عرب الصحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، ط 2، 1989، ص 17.

⁹محمد الشيخ الأنصاري، الطوارق، الأصل والموطن. مجلة الجنوب الليبي الإلكترونية. العدد 1. ديسمبر 2015. ص 57.

¹⁰عبد الرحمان بن خلدون. المقدمة. مراجعة سهيل زّكار. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. م 6. ص 122.

¹¹اسماعيل العربي. الصحراء الكبرى وشواطئها. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1983. ص 186.

¹²محمد سعيد القشّاط. الطوارق عرب الصحراء الكبرى. مرجع سابق. ص 27.

¹³ابن منظور. لسان العرب. دار صادر. بيروت. مج 10. ص 217.

¹⁴محمد سعيد القشّاط. الطوارق عرب الصحراء الكبرى. مرجع سابق. ص 27.

¹⁵عبد الرحمان الجيلالي. حرف القاف المفقودة. مجلة الشهاب. 1931. ص 446.

¹⁶Exploration du sahara. Op. Cit. P 382.

¹⁷Exploration du sahara. loc. cit P 430.

¹⁸Exploration du sahara. loc. cit P 430.

¹⁹Exploration du sahara. Op.cit. p429.

²⁰عماد الدين غانم. الدواخل الليبية. في مجموعة من الدراسات للرحالة الألماني "غوتلوب أدولف كراوزه". منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. سلسلة نصوص ووثائق (28). ص 153.

²¹Exploration du sahara. Op.cit. p 340

²²Exploration du sahara. Op.cit. p 340

²³Exploration du sahara. Op.cit. p492

²⁴عماد الدين غانم. الدواخل الليبية. مرجع سابق. ص 153.

²⁵Exploration du sahara. Op.cit. p340

²⁶Exploration du sahara. Op.cit. p340

²⁷Exploration du sahara. Op.cit. p 340

²⁸عماد الدين غانم. الدواخل الليبية. مرجع سابق. ص 152.

²⁹Exploration du sahara. Op.cit. p 339

³⁰Exploration du sahara. Op.cit. p 341

³¹Exploration du sahara. Op.cit. p 341

³²Exploration du sahara. Op.cit. p 341

³³Exploration du sahara. loc.cit. p339.

³⁴Exploration du sahara. Op.cit. p339

³⁵Exploration du sahara. Op.cit. p336

³⁶Exploration du sahara. Op.cit. p 336

³⁷Exploration du sahara. loc.cit. p 342

³⁸Exploration du sahara. loc.cit. p339

³⁹Exploration du sahara. Op.cit. p388.

⁴⁰الأبجدية الفينيقية "تيفيناغ": هي حروف ليبية مصرية قديمة بشهادة النقوش الصخرية بمرتفعات الهجّار والطاسيلي، والتي تعود أصول كتابتها قبل ميلاد المسيح عليه السلام قبل آلاف السنين، والتيفيناغ تعني بالطارقية الحروف المنسوبة إلى الفينيقيين، والفينيقيون هم شاميون من العرب نزحوا نحو شمال إفريقيا.

أنظر: محمد سعيد القشاط. الطوارق عرب الصحراء الكبرى. مرجع سابق. ص ص 30-31.

⁴¹Exploration du sahara. Op.cit. p388.

⁴²Exploration du sahara. Op.cit. p 388.

⁴³Exploration du sahara. Op.cit. p 450

⁴⁴Exploration du sahara. Op.cit. p340

⁴⁵محمد الشيخ الأنصاري. الطوارق، الأصل والموطن. الجنتب الليبي. السنة الأولى. العدد الأول. 2015. ص ص 62-63.

⁴⁶عثمان سعدي. البربر الأمازيغ عرب عاربة. وعروبة الشمال الإفريقي عبر التاريخ. دار الأة للطباعة والنشر. 2018. ص 8.
ينظر أيضا:

René Basset. Les influences puniques chez les berberes."revue africaine". V 72.

1921

⁴⁷Exploration du sahara. Op.cit. P429.

⁴⁸ "إفوغاس": معناها، أشعل النار، وهي قبيلة جاء جدها محمد المختار من المغرب، وهو عربي من الأشراف، ينتمي إلى الحسن بن علي كرم الله وجهه، وصل إلى منطقة الصحراء أيام البطش بالهاشميين. أنظر:
- محمد سعيد القشاط. الطوارق عرب الصحراء الكبرى. مرجع سابق. ص 23.

⁴⁹Exploration du sahara. Op.cit. p362